الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: مدخل إلى الأدب المغاربي باللغة الأجنبية

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الرابعة: ثلاثية محمد ديب "النول"

النول مدرسة الحياة العملية لعمر:

نصل في نهاية المطاف إلى الجزء الثالث والأخير من هذه الثلاثية موضوع دراستنا .ولئن كنا قد رأينا صورة عن حياة الأسر الفقيرة البائسة وعشنا معها من خلال شخصية الفتى عمر في رواية "الدار الكبيرة" ثم انتقلنا مع البطل نفسه، في رواية "الحريق" إلى الريف فاطلعنا على الواقع البائس واستغلال المستعمرين وأصحاب الأراضي للفلاحين، إن رواية "النول" تعود بنا، مع البطل، إلى المدينة، مدينة تلمسان لتصور لنا قطاعاً آخر هو قطاع العمال وترسم لنا واقعهم الاجتماعي والاقتصادي، وما يدور في ضمائرهم، محاولة بذلك إتمام الصورة العامة للجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، وفي فترة الحرب العالمية الثانية على وجه الدقة. وتكون الثلاثية بذلك قد صورت الواقع العربي في الجزائر في شتى جوانبه ومختلف طبقاته، مع إلحاح خاص على الطبقات الشعبية الفقيرة المستغلة، من فلاحين وعمال.

في هذه الرواية يعود بنا المؤلف إذا إلى تلمسان، وإلى الدار الكبيرة نفسها التي كانت موضوع الجزء الأول، إلا أنه لا يتوقف عندها إلا لحظات قصارا، فما من شيء قد جد في حياة الدار، وما من شيء في بؤس أسرة البطل أو أسر جيرانه قد تغير، فأختاه ما تزالان تعملان في المصنع، وأمه تزداد شقاء على شقاء فلا يتاح لها أن تدبر معاش الأسرة إلا بشق النفس، "والمرأة الوحيدة يدب إليها الهرم قبل غيرها". كما قالت إحدى النسوة، وما أشد ما ينطبق هذا القول على

الأم المعذبة عيني. وليس غريباً أن نسمعها تصرخ في بؤسها ووحدتها وشقائها هذه الصرخة التي تعبر عن آلام جموع من الناس غفيرة: "على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار، وأكلنا كما نأكل الحثالات، وتركنا كما يترك المنبوذون، حتى خبزنا أسود كسواد هذا الليل الذي يلفتا بظلامه.

مر الصيف وعاد التلاميذ إلى مدارسهم، ولكن عمر لم يعد إلى المدرسة، والسبب في ذلك هو طلب الأم منه التخلي عن الدراسة والكتب التي لن تعود عليه بأي فائدة، من جهة ومن جهة أخرى المصاريف التي لم تعد قادرة على دفعها، وهناك مسألة أخرى هي نفور عمر من زيف وكذب المعلومات التي تقدمها المدرسة.

لم يكن من السهل على عمر إيجاد عمل وظل لمدة عام بأكمله يتسكع في الشوارع قبل أن تعثر له أمه على مهنة صبي متمرن في مشغل لنسج الصوف، وبدخوله إلى هذا الميدان دخل عمر الحياة العامة وعالم الكبار رغم أنه لم يتجاوز بعد سن الثالثة عشر، وفي هذا المشغل بدأ تجربة حياتية جديدة تعرف فيها على مجموعة من عمال النسيج.

طبقة كادحة وتيارات سياسية مختلفة:

إذا ما انتقلنا إلى هيكل الرواية وجدنا محمد ديب يقيم بنية رواية النول على حدثين أساسيين: أولهما عمل عمر في معمل للنسيج، وهذا ما أعطى الرواية عنوانها. والثاني ظهور جموع غفيرة من المتسولين اجتاحوا المدينة وشكل ظهورهم ظاهرة غريبة، ومن تضافر هذين الحدثين ينقل إلينا الواقع الحي في أرض الجزائر.

لقد ترك عمر المدرسة إلى الأبد، وأمضى شهور الصيف في (بني بوبلان) وها هو ذا الآن في تلمسان ولابد له من أن يعمل، وكان على أمه عيني أن تسعى لإيجاد عمل له. ولهذا فقد قصدت منزل ماحي بوعنان والتمست منه أن يساعد ابنها اليتيم، فأمرها أن ترسله إلى معمله، وبين دخول عمر المعمل في أول الرواية وخروجه منه في آخرها مطروداً تدور أحداث الرواية، التي تقدم لنا صورة واسعة عن حياة العمال وبؤسهم وسلوكهم.

رغم انتماء جميع العمال إلى الطبقة الشعبية الكادحة، إلا أنهم يختلفون في طريقة التفكير الذي انعكس في طباعهم وطريقة التعبير عن وجهة نظرهم لمختلف القضايا الاجتماعية والسياسية.

أ/ الاتجاه الديني السلفي (تمثله جمعية العلماء المسلمين):

تمثله شخصية غوثي الأمين أما قوطي الأمين فإنسان يتصف بالصلاح والتقى والمثابرة على الصلاة، وهو مثال الإنسان الراضي بمصيره المستسلم له، لا يخطر بباله أن يثور عليه أو يغيره، بل أن لا يجد سبيلاً للتفاهم مع رفقائه الذين تغلي في نفوسهم مشاعر النقمة والتمرد والثورة، وهو يؤمن بأن الناس متساوون أمام بارئهم، ويستعمل غوثي الأمين خطابا دينيا واضحا في أقواله، وفي عرض وجهة نظره فيما يناقشه من الأمور، ومن هذا المنطلق ينكر على الشيوعيين

قولهم بالمساواة بين جميع الناس، يقول: « إنهم متساوون حقا أمام بارئهم، أما في الحياة —وهز رأسه في حركة استنكار– فهذا مستحيل».

ب/ اتجاه حزب الشعب:

يمثل هذا الاتجاه شخصية عكاشة الذي يستعمل في خطابه أدبيات حزب الشعب، فلا يتحدث باسم طبقة أو فئة معينة، ولكنه يتحدث باسم جماهير الأدب، إنه أكثر العمال وعياً وأوسعهم قلباً، وأعمقهم إدراكاً للواقع المحيط بهم، ولعل أهم ما يميز شخصيته هو إيمانه بالشعب وإشادته به وحبه إياه حتى لنسمعه يقول: "الشعب ملكوت الله.. الشعب روح العالم". وهو يشعر بمسؤوليته عن الوضع البشري الذي يعيش فيه هذا الشعب، وهذا ما يضاعف ألمه، أن ألمه ليس ألماً شخصياً وحسب بل إنه يعاني آلام الشعب كله ولكنه، إلى ذلك واثق من أن هذا الشعب سوف يتحرر ويغير وضعه: "لقد أهين شعبنا كثيراً... وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل" وآنذاك فإن هذا الصراع الذي نراه بين الناس سيتحول ويتبدل، وبهذا يفسر عكاشة تمزق الإنسان الذي تلح الرواية على إبرازه، بقوله "الإنسان الذي لا سلطة له على القوى التي تستحقه لا سلطان له على نفسه .ولكن إذا جاء اليوم الذي يحطم فيه كل شيء، تبدل الأمر".

ج/ الاتجاه الثوري اليساري:

تعتبر خطابات شخصية حمزة السجين السياسي السابق، الأقرب إلى الخطاب اليساري الثوري، الذي لا يقبل بالحلول الوسطية، ويرى بأن الثورة هي الحل، وأنها قادمة لا محالة « حينما يأتي اليوم الذي يحطم فيه كل شيء سيتبدل الأمر». ففي شخصية حمزة نلمس المتمرد كما نلمس وعيه لوضعه الإنساني المهدد بالدمار بسبب الفاقة وقسوة الظروف ولا سيما الاستغلال، لهذا نسمعه يقول: « ما نعرفه عن الحياة هو أننا لسنا بشراً كسائر البشر. إن نفوسنا كهذا الكهف الذي نعيش فيه. الناس في أعلى أحرار، ونحن هنا عبيد. ما زيادة قرش على أجر اليوم بالهدف الذي يمكن أن يحفل به عبداً».

فإذا علمنا أنه يعتبر حالة العامل هي مقياس رفاهية الشعب وكرامة الأمة أدركنا مدى الألم الذي يعيش فيه. ولهذا فإن هؤلاء الناس الذين فقدوا كل شيء، عليهم، في رأيه، أن يطالبوا بكل شيء، وهو يدعو، من أجل تحقيق ذلك، إلى ثورة كبرى، ثورة حقيقية يسترد فيها الناس إنسانيتهم: « لقد وصلنا الدرك الأسفل، فلن تجدينا الطرق العادية من أجل أن نعود فنصبح بشراً، لابد لنا في سبيل ذلك من أن نقلب العالم رأساً على عقب، وربما كان علينا أن نروعه...» إن حديث المفكرين الاقتصاديين عن الاستلاب يتجسد حيا في شخصية هذا العامل الذي وعي وضعه الإنساني وأدرك حقيقة الواقع الاستعماري المحدق به ومدى تهديمه للنفس الإنسانية.

د/ الاتجاه الموالي للسلطة المعارض للثورة:

يمثل هذا الاتجاه شول رئيس العمال ووكيل صاحب المعمل، ولأن مصالح شول مرتبطة بمصالح صاحب المعمل، كان دائم الدفاع الدائم عنه كثير الصراع مع العمال لأجله، ولهذا نسمعه يتحدث عن ضرورة قيام العمال بعملهم وأداء الواجب بأمانة، فهو لا يفتأ يردد هذا القول: «إذا حل الخير أصاب الجميع، وإنما ينبغي للإنسان أن يؤدي عمله في أمانة».

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتعداه إلى الدفاع عن الاستعمار الذي ارتبط به صاحب المعمل متمثلاً في عدد من المستوطنين والضباط، وتوطدت أركان الصداقة بينه وبين هؤلاء، فشول معجب بالاستعمار، يتمنى بناءه ودوامه، ويشيد به ويرى فيه الخير كل الخير، يقول مثلاً: « أني لأتساءل ما الذي كان يمكن أن نصير إليه لولا أن عصا السلطة الفرنسية تهتز فوق رؤوسنا. إني لألقي على نفسي هذا السؤال حقاً، لولا هذه العصا لأكل بعضنا بعضاً، ما في ذلك ريب..» وليس من تفسير لهذا الموقف إلا أن شول قد ارتبطت مصالحه الفردية بمصلحة صاحب المعمل، وأن له مصلحة في بقاء الأمور على ما هي عليه.

اتجاهات فكرية مختلفة وهدف واحد:

بالرغم من الاختلاف البين في المنطلقات الإيديولوجية لهؤلاء العمال، إلا أنهم يتفقون في وجهات النظر إلى المسائل الكبرى، مثل ضرورة تغيير أوضاع الشعب التي بلغت حدا من التدهور لم يعد يطاق، ولكن كانوا يختلفون من منطلق قناعتاهم الشخصية عن الوسائل والكيفيات.

لقد وجد عمر في كل تلك الأفكار والجدل واختلاف الآراء بين هؤلاء العمال ما شكل بالنسبة إليه مدرسة جديدة حقيقية تعلمه أشياء كثيرة في الحياة؛ حيث وجد من خلالها الإجابة عن العديد من الأسئلة التي تدور في ذهنه بطريقة غير مباشرة دون أن يتدخل في الكثير من الحوارات التي كانت تجري أمامه.

إن أقرب شخص مقرب من عمر كان عكاشة الرجل الرصين الهادئ المتخلق، بدأ اعجابه به من خلال متابعته للحوارات الدائرة بينه وبين الغوثي أمين وحمزة، وقد كانت أحاديثه التي تدور حول الشعب والحرية تمس مشاعره بطريقة عجيبة، ولعل السبب في ذلك هو الهدوء الذي يتميز به في طرح أفكاره، يقول الراوي: « إن عمر لم يشعر في يوم من الأيام بأنه قريب من هذا الشخص المحير كما يشعر بذلك في هذه اللحظة، كلماته المرة، ولهجته التي تدل على المعاناة ».

تقرب عمر من عكاشة وأصبحا صديقين بالرغم من فارق السن بينهما، فكانا يجلسان معا في المقهى ويخوضان في أمور مختلفة وقد كان يجيبه عن جملة الأسئلة التي تحيره، غير أن عكاشة رحل على نحو غامض في نهاية الأمر.

بهذا الجزء من الثلاثية تتضح، كما رأينا، رؤية الواقع وتتعمق ويظهر منظور الروائي الاجتماعي وأسلوبه الواعي على نحو عميق حاد. ذلك بأن محمد ديب قد ألح، في هذا الجزء من الثلاثية، إلحاحاً كبيراً على تصوير قسوة العمل واستغلال

العمال، وأثر الوجود الاستعماري على نفوس الناس. وأن ما درسه وشرحه فرانز فانون في كتابه "معذبو الأرض" عن حالة الإنسان المستعمر والأمراض العصبية التي يصاب بها، والتمزق الذي يعانيه، والصراع الباطني والخارجي الذي يتعرض له قد بسطه محمد ديب ههنا بأسلوب روائي فني إذ جسده في أشخاص ودرس ارتباط هؤلاء الأشخاص بعضهم ببعض فأثبت بذلك مقدرة عميقة على فهم الواقع ورصده ونقله.

نخلص من ذلك كله إلى القول أن محمد ديب قد رسم بثلاثيته هذه صورة متكاملة للحياة في الجزائر في شتى جوانبها وللناس في مختلف طبقاتهم وللطبيعة في تقلب فصولها. فبرهن على قدرة روائية كبيرة بطموحه الروائي الكبير هذا. كما برهن عن رؤية صادقة دقيقة للواقع وتفسير عميق لهذا الواقع، وإدانة للمستعمر الذي عاث فيه فساداً. فكانت روايته بأجزائها الثلاثة صرخة احتجاج على الاستعمار والبؤس الإنساني ورفضاً للظلم وإيماناً عميقاً بالإنسان والانسانية.

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- أحمد منور: أزمة الهوية في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية.